جماعات المسلمين

فرادى وجماعات

القصص التي اخترتها وذكرتها في القسم السابق من هذا الكتاب قصص فردية. وهي كما ذكرت في البدء نماذج قليلة من مثيلاتها التي تعد بالألوف جرت في أزمنة مختلفة وفي بلدان مختلفة، أبطالها مختلفون في الجنس والسن والمهنة، ويستطيع الباحث إيجادها في الكتب أو سماعها على ألسنة الناس لو أراد ذلك.

وأرى أن أختم هذه القصص فيما يلي بملاحم أبطالها جماعات احتملوا الكثير من الأذى وبذلوا كثيراً من التضحيات، واحتملوا المشاق الجسام في الأنفس والخسائر العظيمة في الأموال في سبيل الاحتفاظ بدينهم أو نصرة لغيرهم من المسلمين، فأبلوا بلاءً حسناً في سبيل ذلك. دافعهم القيام بالواجب الذي يفرضه الإسلام على كل مسلم، وهو الجهاد في سبيل الله وفي سبيل نصرة دين الله؛ وكان منهم المجاهدون في أول عهد الإسلام ومن تلاهم في العصور الأولى، وما قاموا به من فتوحات رسخوا بنتائجها أركان الدين الحق في معظم ما كان معروفاً من بلاد العالم في زمنهم؛ ومنهم المجاهدون في العصور التي تلت ذلك الزمان كما جرى في الحروب الصليبية في العصور المتوسطة، وما حدث في العصور الأخيرة في الجزائر والمغرب وليبية من البلدان العربية، وفي

البلدان التي خضعت لروسية في أثناء قيام الاتحاد السوفييتي، ومنهم أخيراً من لا يزال يجاهد باسم الدين في سبيل الله كما في الشيشان وكشمير وأفغانستان ولبنان وفلسطين، وقد رأينا وسمعنا عما فعلوا الشيء الكثير. جزاهم الله خيراً أجمعين.

المهاجرون الأولون

كانت الدعوة إلى الإسلام سرِّية في البدء، لذلك كان يزداد عدد الذين يلبون الدعوة ببطء شديد، وكانوا ضعفاء لا حول لهم ولا قوة، ومن الطبيعي أن يغضب المشركون إذ وجدوا من يسفه أحلامهم وينتقد عقائدهم، وينهى عن عبادة أصنامهم، ومن البديهي أن يسعى المشركون، ولا سيما زعماؤهم، للوقوف في وجه هذا الدين الجديد والسعي لإيقاف انتشاره حفظاً لمراكزهم وسيطرتهم، لذلك لم يدخروا جهداً في محاربته للقضاء عليه في مهده؛ فحاولوا قتل الرسول عليه الصلاة والسلام كما آذوا أصحابه المقربين، وأهانوا وعذبوا أصحابه الضعفاء الذين لا يخشون بأسهم بشتى أنواع الإهانة والعذاب؛ بربطهم بالحبال وجرهم إلى الرمال المحرقة ليضعوا فوق صدورهم الصخور الثقيلة، أو بغطس رؤوسهم في الماء محاولين خنقهم، أو بضربهم بالسياط أو بحرقهم بسفافيد الحديد المحمي، أو بتقطيع أقسام من أجسادهم.. وقد بلغ أذى المشركين ذروته في أواخر السنة الرابعة وأوائل السنة الخامسة للدعوة، ولما فاض الكيل بالمؤمنين المعذبين نصحهم الرسول بالهجرة إلى الحبشة التي علم أن فيها ملكاً عاقلاً عادلاً لا يخشى عليهم في مملكته. وهاجر فعلاً اثنا عشر رجلاً وخمس نساء كانوا جميعاً بصحبة عثمان بن عفان ﵁ وزوجه رقية بنت الرسول ﷺ.

وحدثت في مكة أحداث وصلت أخبارها إلى هؤلاء المهاجرين مغلوطة؛ فقد شاع أن قريشاً أسلمت فعاد المهاجرون إلى مكة ولكنهم عرفوا قبل بلوغها بقليل جلية الأمر، فأكمل بعضهم طريقه ودخل مكة بجوار (أي بحماية) بعض أهلها وعاد الباقون إلى الحبشة رأساً. وتبعهم بعد ذلك بمدة قصيرة فوج آخر من المهاجرين كان عددهم ثلاثة وثمانين رجلاً وثماني عشرة امرأة.

وقد حاول المشركون استعادة هؤلاء المهاجرين لإذلالهم والقضاء عليهم، فأرسلوا من يكيد لهم في الحبشة ويسعى لدى ملكها لطردهم، وقصة ذلك معروفة وكيف أن الملك بعد أن استمع إلى وفد المشركين ووفد المهاجرين اللاجئين إلى بلاده رد المشركين مع هداياهم الثمينة، وآمن المسلمين لديه وأكرم وفادتهم، حتى قيل إنه أسلم وكتم إسلامه.

يبدو لأول وهلة أن هجرة المسلمين إلى الحبشة كانت فراراً من العذاب الذي كانوا يلاقونه من المشركين ونجاة بأنفسهم من الأذى الذي كان يلحق بهم ويهدد حياتهم، ولكن الأمر لم يكن كذلك قط، وإنما هو على العكس ينطوي على التضحية الكبيرة ويدل على الإيمان القوي وبعد النظر الثاقب، يدل على ذلك كله:

١- أن السفر في ذلك الزمان لم يكن بالأمر السهل كما هو عليه اليوم، بل كان أمراً مليئاً بالصعوبات محفوفاً بالمخاطر والعقبات سواء في ذلك سفر البر وسفر البحر.

٢- ترك هؤلاء المهاجرون ديارهم وأهلهم وثرواتهم إلى ديار غريبة لا يعرفونها ولا يعرفون فيها أحداً من أهلهم أو من أهلها، ولا يدرون ما سيكون شأنهم بين ظهرانيهم، فحالهم لا يشابه حال من يهاجر اليوم ومعه عقد عمل يكفل له عيشه، وقد يجد حيث يهاجر صديقاً أو قريباً يساعده ويشد أزره حين الحاجة.

٣- يهاجر الناس اليوم طلباً للثروة التي يفتقدونها في بلدهم، في حين ترك المهاجرون الأوائل ثرواتهم وذهبوا إلى بلد قد لا يجدون فيها عملاً يرتزقون منه.

ويجدر هنا أن نشير إلى إحدى الأكاذيب الكبيرة التي روّج لها المشركون، وما زال يقول بها بعض الجهلة والحمقى والمغرضين، وهي أن أوائل متبعي الدين الجديد كانوا من أراذل الناس ومن العبيد والفقراء، في حين أن الحقيقة تناقض ذلك قطعاً، فقد كان معظمهم من أشراف قريش، وهي القبيلة المحترمة المكرمة بين العرب آنذاك، وبعضهم من أشراف القبائل الأخرى الموجودة، ولم يكن إلا نفر قليل من الفقراء والعبيد؛ فأبو بكر وأبو عبيدة بن الجراح وجعفر بن أبي طالب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص وأمثالهم كلهم من أشراف قريش وأثريائها وكذلك كان معظم الصحابة الأولين.

٤- يترك المهاجرون اليوم أهلهم الذين يحبونهم ويتمنون لهم الخير، وينتظرون عودتهم المؤقتة أو الدائمة لاستقبالهم بالترحيب والأهازيج والزغاريد، في حين ترك المهاجرون الأولون بلدهم وفيها أعداء لهم يتربصون بهم الدوائر، وهم لو أرادوا العودة من مهجرهم ما استطاعوا ذلك؛ لأنهم لو عادوا لأمسك بهم المشركون فنكلوا بهم أو قتلوهم.

لقد كان من السهل على المهاجرين الأولين - وهم أمام كل هذه الصعوبات التي تحيق بهم والتي تنتظرهم - أن يتخلصوا من كل هذه المشاكل بالعودة إلى دينهم الذي كانوا عليه، أو أن يتظاهروا بذلك على الأقل لينعموا بالعيش الرغيد في بلدهم بين أهلهم، ولكنهم كانوا أقوى من أن تخور عزائمهم لإيمانهم القوي الذي لا يتزعزع بصحة الدين الجديد الذي اتبعوا، لذلك كان من البديهي تفكيرهم بالابتعاد عن الجو الموبوء الذي يعيش فيه المشركون وما فيه من مثالب وموبقات، ولإيمانهم

كذلك بأن الله غالبٌ على أمره ومظهر دينه ولو كره الكافرون، وبقاؤهم ولو بعيداً عن بلدهم سيكون نافعاً لقومهم بالحفاظ على الدين ومبادئه وتعاليمه لو أصابها سوء في بلدهم.

آثر هؤلاء المهاجرون النجاة بدينهم غير ملتفتين إلى دنياهم؛ لأن إيمانهم أقوى من أن يفت في عزائمهم الصلبة ما قد يلاقونه من صعاب مهما بلغت شدتها، وكانوا مثلاً أعلى في الثبات على المبدأ الذي ارتضوه لأنفسهم عن قناعة ورضا نفس.

رضي الله عنهم وأرضاهم أجمعين.

العاصمة الأولى

تذكر كتب التاريخ الإسلامي تفصيل هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام وصحبه من مكة إلى المدينة المنورة (وكان اسمها يثرب)، وهذه الهجرة كانت الفاصل بين عهدين؛ عهد اضطهاد المسلمين في بلدهم، وعهد انتصارهم وتأسيسهم العاصمة الأولى لدولة الإسلام التي امتدت ظلالها في أرجاء العالم كافة، وبقيت عزيزة قوية مرهوبة الجانب ألفاً ومئتي سنة حتى تكالبت عليها بعد ذلك قوى الدول الغربية، وبدأت بالسعي لتهديمها وشن الهجمات عليها، حتى استطاعت السيطرة على بعض أجزائها بالحروب التي تمت على مراحل مختلفة في الشرق والغرب، واستطاعت أخيراً تقويض الخلافة العثمانية وتقطيع أوصال إمبراطوريتها الكبيرة.

واجهت المسلمين في هذه الهجرة مصاعب جمة، وأصابهم أذى شديد احتملوه بصبر عجيب وثبات على المبدأ؛ فالهجرة لم تكن سفراً يسيراً حمل فيه المهاجرون أمتعتهم واستقلوا وسيلة نقل مريحة أقلتهم من دورهم في مكة إلى دار الهجرة في يثرب بأمان واطمئنان، بل كانت عملاً شاقاً ترك فيه المهاجرون دورهم وأموالهم التي صادر المشركون أكثرها، وتركوا أحياناً نساءهم وأولادهم الذين أذاقهم المشركون أنواع التنكيل

والتعذيب، وكانوا هم في رحلتهم تحت تهديد المشركين في كل لحظة، إضافة إلى مشاق السفر الذي كان مشياً على الأقدام في أغلب الأحيان، أو على رواحل قد تكون مريحة أو لا تكون، وهم يقطعون على مدى أيام طويلة صحراء قاحلة نهارها محرق متعب وليلها مظلم مرعب، ولم ينج أحد من مشاكل اعترضته قبل سفره أو في أثناء سفره، وقصص بعضهم معروفة مشهورة، وحتى النبي عليه الصلاة والسلام كان سفره محفوفاً بالمخاطر ليلة خروجه من مكة، وحين لجوئه مع الصديق إلى غار ثور ثم في كل طريقه؛ إذ كان المشركون يترصدون حركاته ويرسلون عيونهم للعثور عليه وقتله، وتتجلى هنا المعجزة الإلهية التي حفظته من كل سوء مع كل الأخطار التي كانت منه قاب قوسين أو أدنى في جميع مراحل سفره الطويل.

مع كل ما تعرض له المؤمنون المهاجرون من صنوف العذاب والشقاء لم يسمع عن أحد منهم أنه لانت له عزيمة، ففكر في العودة عن إسلامه، بل كانت كل هذه المصاعب لاتزيدهم إلا إيماناً بالله وثباتاً على المبدأ الذي ارتضوه وتمسكاً بهدي النبي الكريم ونهجه العظيم.

لم تكن تضحيات الأنصار أهل يثرب ولا شدة إيمانهم قليلة كذلك، فمن المعروف أن النبي ﷺ آخى بينهم وبين المهاجرين، وكان من نتيجة ذلك أن شاطر المهاجرون الأنصار أموالهم وأملاكهم، إن المال يعادل الروح، كما يقول المثل المعروف، ويؤكد القرآن هذا المعنى بقوله تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الكهف: ١٨/ ٤٦] وإن الإنسان ﴿لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات: ١٠٠/٨] ومع كل هذا فقد تبارى الأنصار في تقديم ما عندهم لإخوانهم.

روى البخاري أنهم لما قدموا المدينة آخى رسول الله بين عبد الرحمن وسعد بن الربيع فقال لعبد الرحمن: «إني أكثر الأنصار مالاً فاقسم مالي

نصفين، ولي امرأتان فانظر أعجبهما إليك فسمها لي أطلقها فإذا انقضت عدتها فتزوجها» قال عبد الرحمن: «بارك الله لك في أهلك ومالك، ولكن أين سوقكم؟ فدلوه على سوق بني قينقاع..» إلى آخر القصة...

كما روي عن أبي هريرة: قال: قالت الأنصار للنبي عليه الصلاة والسلام: اقسم بيننا وبين إخواننا النخيل، قال: لا. فقالوا: فتكفونا المؤونة ونشرككم في الثمرة، قالوا: سمعنا وأطعنا.

هذه القصص وأمثالها تدلنا على الدرجة الرفيعة من الكرم والنبل التي اتصف بها الطرفان؛ فليس من طرف يريد استغلال الطرف الآخر، وإنما هو إخاء حقيقي وتعاون شريف في سبيل إعلاء كلمة التوحيد تحت راية دين الإسلام الذي ارتضاه الله بنعمته لعباده. . ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٥/ ٣].

ما أشبه الليلة بالبارحة!!

يبدو أن طبيعة البشر واحدة منذ خلق الله البشر وإلى يوم الناس هذا؛ يصعب عليهم تغيير ما درجوا على عمله، ولا يستسيغون تبديل ما ألفوه من معتقد أو عادة أو حتى من لباس أو طعام، ولا يكتفون بعدم التغيير بل يحاربونه ويحاربون من يقول به أو يدعو إليه قبل أن يعرفوا الجديد الذي قد يكون أفضل مما اعتادوا وأقوم مما ألفوا. ويبدو كذلك أن طريقة محاربة الجديد واحدة فهي لا تعرف المهادنة ولا تؤمن بالحوار همُّها ليس القضاء على الفكرة فحسب بل القضاء على أصحاب الفكرة أيضاً.

وهكذا كان حال المشركين من الدعوة إلى الإسلام وصاحب الدعوة والمؤمنين الأولين بالدعوة. فقد تفننوا في طرائق محاربتهم، وكان آخر هذه الطرائق - بعد إخفاق كل وسائل التعذيب التي اتبعوها - ما هداهم إليه شركهم وحمقهم وسوء تدبيرهم وهو مقاطعة من يحمي النبي؛ وهم بنو هاشم وبنو المطلب، ما لم يسلموهم إياه ليقتلوه. فكتبوا بذلك عهداً في صحيفة علقوها داخل الكعبة، مما جاء فيها أنهم لا يبايعونهم ولا يجالسونهم ولا يخالطونهم ولا يناكحونهم ولا يكلمونهم ولا يدخلون بيوتهم ولا يقبلون منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة، حتى يسلموا النبي للقتل.

وحبس بنو هاشم وبنو المطلب - المسلم منهم وغير المسلم - في شعب أبي طالب، وضُيِّق عليهم الحصار فكان لا يصلهم الغذاء إلا ما يتسرب من بعض من يوصله إليهم خلسة، أو ما كانوا يستطيعون شراءه من القوافل التي تأتي مكة من خارجها؛ لأن أهل مكة كانوا يزيدون عليهم في السعر كيلا يستطيعوا شراءها، حتى اضطروا إلى أكل الورق والجلد. وبقي المؤمنون على هذا الحال، ما ارتد منهم أحد ولا تململ منهم أحد، صبروا على الجوع والحرمان رجالاً ونساءً وأطفالاً حتى نهض جماعة من المشركين أنفسهم بعد ثلاث سنوات من هذا الحصار فسعوا إلى نقض الصحيفة وتم لهم ذلك بعد نقاش مع أبي جهل، وقصة ذلك معروفة وكيف وجدت الصحيفة وقد أكلتها الأرضة ما عدا ما فيها من أسماء الله.

رُفع الحصار في السنة العاشرة من النبوة، ولنطو الآن ألفاً وأربع مئة سنة ونيفاً من عمر الزمن، ولنترك مكة وما جرى فيها لنرى غزة وما حدث فيها، ولنترك النبي عليه الصلاة والسلام والمؤمنين الأولين وما جرى لهم لنرى حركة حماس ومن معها من شعب فلسطين وما حدث لهم.

حماس (حركة المقاومة الإسلامية) أسسها رجل عاجز بجسمه (مُقعد)، ولكنه قوي بعقيدته وإيمانه هو المرحوم أحمد ياسين، التفت حوله ثلة من الرجال المؤمنين المخلصين ساروا وفق منهج سليم في محاربة المغتصبين اليهود في فلسطين بعزيمة صلبة وثبات عجيب، واتسعت حركتهم ونمت بالرغم من سعي الصهاينة الحثيث لتخريبها بكل ما لديهم من وسائل لا شريفة ولا نظيفة، حتى حازت ثقة الشعب الفلسطيني وفازت عام ٢٠٠٥ فوزاً ساحقاً في الانتخابات التشريعية الفلسطينية التي جرت بمراقبة مراقبين دوليين اعترفوا بأنها كانت انتخابات سليمة ومثالية، ومع أن الأمريكيين ومن والاهم من اليهود يعلنون في كل محفل - وهم منافقون مخادعون - أنهم من أنصار الديمقراطية، ويزعمون

في كل مناسبة ومن دون مناسبة - وهم كاذبون مراؤون - أنهم يسعون لتحقيق رغبات الشعوب، ومع هذا كله لم ترقهم نتائج هذه الانتخابات، فبدؤوا بإيقاد نار الفتنة ووضع العقبات والعراقيل في وجه الحكومة الائتلافية التي قامت في غزة، واستمروا في الكيد والتآمر حتى أسقطوا الحكومة، كما هو معروف، ثم فرضوا الحصار على غزة وأهلها، ولكن غزة وأهل غزة ثبتوا وأثبتوا أنهم مثال للصبر وتحمل الأذى، وقد ظن اليهود وأسيادهم الأمريكيون وأذنابهم من العرب المتخاذلين أن الضغط على غزة يوهنها، وقد خاب ظنهم فلم يزدهم الظلم إلا عزيمة ولم يزدهم القتل والجوع والتهجير إلا قوة شكيمة؛ لأنهم موقنون أن العاقبة للصابرين المتقين أصحاب الحق، وأن التمسك بالدين الذي خالط الإيمان به القلوب تصبح معه النفوس أقوى من النار وأصلب من الحديد، وهذا ما حدث فعلاً، فقد زادت قوة أهل غزة وبعد أن كان سلاحهم حجارة يلقيها الأطفال أصبحت صواريخ تدك منازل اليهود ومصانعهم، وانتقل الخوف والرعب إلى رجالهم ونسائهم، ولما كانوا لا يفهمون إلا لغة القتل والتخريب فقد ظنوا أن استعمال القوة هو الحل الوحيد لخلاصهم مما هم فيه، فشنوا حرباً ظالمة بربرية على غزة أفرغوا فيها كل حقدهم وقذارتهم، واستعملوا الأسلحة التي زودتهم بها ولية نعمتهم أمريكة، ومنها ما هو محرم استعماله بموجب الاتفاقات الدولية الكثيرة، وكانوا يحسبون أن القضاء على أهل غزة ومقاومتها لن يستمر إلّا ساعات أو على الأكثر أياماً معدودات، فإذا بهم أمام مقاومة عجيبة وصبر على المقاومة غريب، وإذا بهم يرون أنفسهم مضطرين إلى إيقاف عدوانهم الهمجي دون أن يحققوا مكسباً ما، ولا حتى الأمل في الخلاص من حماس التي لم يستح أحد القذرين من الوزراء العرب من وصفها بالعصابة، وبعد أن كانت قضية غزة قضية محلية يحاول اليهود وأدها في مكانها أصبحت قضية دولية يفتش لها عن حل. وبعد أن ظن بعضهم أن إقالة حكومة غزة

ستنهي المشكلة وجدوا أن إقالتها كانت بدء المشكلة، وأن إرادة الحياة الكريمة لا تتحقق إلا بالسعي للموت الشريف، وهذا ما يزرعه الدين، والدين وحده في نفوس الناس؛ لأن المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف، وهو أمر لا شك فيه ولا ريب..

حصار غزة وأهل غزة في القرن الحادي والعشرين للميلاد شبيه بحصار النبي والمؤمنين معه في القرن السادس للميلاد؛ أي بعد خمسة عشر قرناً، من بعض الوجوه. ويختلف عنه في وجوه أخرى، وأرى من المفيد إلقاء نظرة ولو عاجلة للمقارنة بين الحصارين ورؤية أوجه الشبه وأوجه الاختلاف بينهما:

١- الغاية من الحصار القديم القضاء على النبي ﷺ ودينه الذي يبشر به ولا شيء وراء ذلك، ولو انتصرت قريش في حصارها وزال النبي ودينه الجديد فقد انتهى الأمر وعاد كل شيء إلى ما كان عليه. أما الغاية من الحصار الجديد فلا تقتصر على القضاء على حماس وفكرة المقاومة، بل ليكون ذلك حلقة أولى في سلسلة حلقات تنتهي باحتلال الأرض واستعمار أصحاب الأرض، ولو انتصر اليهود في حصارهم ثم في حربهم التي شنوها لأدخلوا الرعب في قلوب العرب أجمعين وكسروا شوكتهم، ثم فرضوا شروطهم عليهم وهم صاغرون.

٢- ندم بعض المشركين على ما فعلوا بأصحابهم وأقنعوا بقية قومهم بنقض الصحيفة فنقضت رغم معارضة أبي جهل، ومن الطبيعي ألّا يخرج من اليهود الصهاينة من يقول بفك الحصار عن أهل غزة، ولو حدث ذلك - وقد حدث فعلاً - فإن عدد من يقول بذلك ضئيل جداً لا يسمع لهم قول، ولكن من غير الطبيعي بل من العيب والمخزي أن يشترك بعض العرب في فرض هذا الحصار، وألّا يتخذ الكثير منهم وسيلة، حتى ولو بالكلام لفك هذا الحصار الجائر الهمجي.

٣- كان حصار النبي وأصحابه حصاراً اقتصادياً واجتماعياً فحسب، ولم يخسر النبي وأصحابه شيئاً بعد فك الحصار وعادوا لما كانوا عليه من قبل، في حين كان حصار غزة وأهلها حصاراً اقتصادياً وسياسياً ثم حربياً، وفي حين كانت تتدفق الأسلحة بلا حساب لمساعدة الصهاينة كان يمنع السلاح عن أهل غزة حتى من (الأشقاء العرب)، وحين انتهت الحرب - ولما ينته الحصار بعد - كانت خسائر أهل غزة آلاف الشهداء ومليارات الدولارات، ولكنهم ربحوا مقابل ذلك الشرف والكرامة وكريم السمعة في معركة لا عادلة ولا متكافئة، كما ربحوا مقابل ذلك أيضاً ما اكتسب اليهود من سوء السمعة حتى عند بعض أصدقائهم الذين بدؤوا يدركون حقيقتهم ويصرحون علناً، ولو بأصوات خافتة مترددة، بأن ما فعلوه في غزة كان جرائم حرب، وأنا واثق أن هذه الأصوات ستشتد وترتفع وترتفع إذا ما استمر اليهود وحلفاؤهم في سياساتهم الإجرامية والوحشية.

٤- لم يكن في عهد النبي شيء اسمه تصريح حقوق الإنسان، ولم تكن هناك معاهدات لمعاملة المدنيين وحماية الأطفال في أثناء الحرب، ولا اتفاقات لمنع استعمال الأسلحة المحرمة - ولم تكن هناك أسلحة محرمة أصلاً- ولا بروتوكولات تحرم استعمال (القوة المفرطة).. لم يكن هذا كله وغيره مما نعلم وما لا نعلم.. وإنما كان هناك ضمير صاحٍ، وصلة اسمها صلة القربى والإنسانية، وهي التي دفعت أحد المشركين - الذين كانوا في الأصل غير راضين عن الحصار - ليذهب إلى صديق له قريب النبي عليه الصلاة والسلام ليكلمه في الأمر وحجته بسيطة ساذجة هي قوله: (أرضيت أن تأكل الطعام وتشرب الشراب وأخوالك على ما تعلم؟؟). لقد تحرك في هذا الإنسان الشعور بالقرابة والإنسانية على اختلاف العقيدة.

أما في حصار غزة وحرب غزة فقد رضي كثير من الناس بأن يأكلوا الطعام ويشربوا الشراب وأن يفعلوا ما هو أكثر من ذلك، وأهلهم كما يعلمون، لم يرف للكثير منهم جفن ولا اهتز طرف ولا خفق جانح، ولا حاولوا الإفادة من مئات الاتفاقات والمعاهدات التي تحرم ما حدث، واكتفوا بعقد اللقاءات والدعوة إلى المؤتمرات وتقديم الاحتجاجات من بعض المسؤولين وليس من كلهم، وتحول الحصار إلى حرب شعواء طاحنة أكلت الأخضر واليابس مما عرفه كل الناس في جميع أنحاء المعمورة، ومع ذلك لم يرف لبعضهم جفن، وكان لبعضهم (فضل) مساعدة العدو على أبناء قومه ودينه.

وأوقف المعتدون الحرب لا لشيء إلا لأن صمود غزة وأهل غزة كسر مخططهم في تحقيق غايتهم منها؛ ولأنها كلفتهم خسائر فادحة أصبحوا غير قادرين على احتمالها، ولأن العالم بأسره - عدا بعض الدول الشقيقة - قام يندد بهذا العدوان الوحشي على شعب آمن.

وهكذا تلقت الصهيونية صفعة ثانية موجعة بعد الصفعة الأولى التي تلقتها في لبنان قبل ذلك بعامين، وانهار الوهم الكبير بقوة اليهود وقوة دولة اليهود المسخ.

وهل كان كل ذلك ممكناً لولا قوة إيمان أهل غزة بفكرة الجهاد التي زرعها الدين الإسلامي في نفوسهم ونفوس قادتهم؟ هل كان كل ذلك ممكناً لولا عقيدة المسلمين بأن الدار الآخرة خير من الدار الفانية، وأن الاستشهاد هو السبيل إلى الخلود ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ٣/ ١٦٩] صدق الله العظيم.

إن تنصروا اللّٰه ينصركم

كانت مفاجأة كبيرة تلك التي حدثت في تموز ٢٠٠٦م في دولة صغيرة اسمها لبنان، مفاجأة غير متوقعة أدهشت العالم بأسره الصديق منهم والعدو على حد سواء. ذلك أن الصهاينة الحاقدين تدفعهم الولايات المتحدة الأمريكية المتعجرفة العاتية ورئيسها المأفون آنذاك، أرادوا متكافلين متضامنين الثأر من المقاومة اللبنانية التي أجبرتهم على الانسحاب من لبنان عام ٢٠٠١م بعد احتلال دام مدة غير قصيرة من الزمن، وكانوا يظنون أن القضاء على المقاومة لن يستمر أكثر من ساعات أو على الأكثر أياماً معدودات، فشنوا هجوماً جوياً وحشياً قصدوا منه إلقاء الرعب في قلوب اللبنانيين ظناً منهم أن ذلك سيجبرهم على الاستسلام، ولما لم تتحقق أحلامهم اضطروا إلى تمديد المدة المقدرة لعملهم مرة ومرتين دون جدوى، مما أجبرهم على تجربة احتلال الأرض، فإذا بهم أمام مقاومة هدمت قواهم، ودكت دباباتهم الجبارة، وبعد بضعة أسابيع من قتال مرير ذاقوا فيه الأمرَّين اضطروا إلى إيقاف هذه الحرب المجنونة واعترفوا بهزيمتهم صاغرين ذليلين، وأنف بعض العرب الذين لم يعترفوا بذلك راغم، وتداعت مؤسستهم العسكرية تداعي بيوت العنكبوت وتهاوت رؤوس بعض قادتهم صاغرة ذليلة، وكانت هذه أول هزيمة شنعاء من نوعها يصاب بها الجيش الذي لا يغلب، وصدق فيهم

قول الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢/ ٢٤٩].

ما سر ما حدث؟؟

السر في قوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٤٧/٧]. وقد وجد في لبنان من نصر الله وهم رجال المقاومة التي يتزعمها حزب الله وأنصاره، فنصرهم الله نصراً مؤزراً، لم يرفع رؤوس المقاومة فحسب، بل رفع عالياً رؤوس كل العرب وكل المسلمين، وكان هذا الانتصار درساً بليغاً لكل المتخاذلين الخانعين الراضين بالذل والصغار تعلموا منه أن الإرادة القوية والعزيمة الصادقة وقوى الخير - مهما صغرت - لا بد أن تهزم قوى الشر مهما عظمت، إذا اتبعت الطريقة الصحيحة في العمل.

لقد أعد قادة حزب الله رجالهم وسلاحهم وطرائق أعمالهم إعداداً صحيحاً مدروساً. لذلك أتت النتائج وفق ما أرادوا بمشيئة الله وإرادته وتوفيقه. نرجو الله أن يتسع حزب الله ليشمل كل البلاد الإسلامية، ولا أقصد حزب الله الموجود في لبنان بهيكله ورجاله؛ لأن كل مسلم ينصر الله بأن يأتمر بأوامره وينتهي عن نواهيه هو من حزب الله، وما أجدر أن يكون كل المسلمين من هذا الحزب ليحق فيهم قول الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٥٨/ ٢٢]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥/ ٥٦].

العمل الصالح

ما اقترنت صفة الإيمان في القرآن الكريم بصفة أخرى من صفات المسلم أكثر من اقترانها بالعمل الصالح الذي أتى بصيغ مختلفة في عشرات الآيات الكريمات:

﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢/ ٨٢]. ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ [النساء: ٤/ ٥٧]. ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ [الرعد: ١٣/ ٢٩].

والمؤمن لا ينفعه إيمانه ولا تنفعه صلاته وصيامه إن لم يكن عمله صالحاً، والله سبحانه وتعالى يعفو عن تقصير الناس بعباداتهم، ولكنه لا يعفو عن سوء معاملة الناس بعضهم بعضاً ولا التعدي على حقوق الناس، والأعمال الصالحة يكافئ الله عليها أضعافاً مضاعفة ويضاعف لمن يشاء بغير حساب. . . ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْزَقُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [غافر: ٤٠/ ٤٠].

لذلك كان الصحابة الكرام ومن تبعهم يسارعون إلى عمل الخيرات يساعد بعضهم بعضاً ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:

٩/٥٩]. وجاء من بعدهم خلف حافظوا على هذه الصفات الحميدة وما زالوا يتوارثونها كابراً عن كابر إلى يومنا هذا. ولم يقتصر الأمر على التعاملات الفردية، بل تعداها مع الأيام إلى أعمال جماعية اتسعت رقعتها واختلفت مراميها مع نشوء حاجات جديدة وأغراض مختلفة.

بدأت الأعمال برصد الأموال للفقراء والمساكين وأبناء السبيل والغارمين وغير ذلك من مصارف الصدقات المفروضة، ثم تطورت لمعالجة المرضى وبناء المستشفيات، وأعتقد أن أول المستشفيات المعروفة في العالم بنيت في دولة الإسلام وكانت تعرف بالبيمارستان؛ ومنها البيمارستان النوري في دمشق والبيمارستان القيمري في دمشق، ومثلها في حلب وبغداد والقاهرة وغيرها من المدن الإسلامية، ويروي التاريخ قصصاً فريدة وعجيبة عن الخدمات التي كانت تقدم في هذه المستشفيات مما يشبه ما يقدم الآن في فنادق (الخمسة نجوم). وانتشرت بعد ذلك في معظم البلدان الإسلامية دور الأيتام التي تعنى بتربيتهم وتعليمهم حتى مراحل متقدمة من التعليم، إضافة إلى تأهيلهم ليكونوا أعضاء نافعين في مجتمعهم بتعليمهم مهنة ما يمتهنونها في حياتهم ويكتسبون منها رزقهم بشرف، وقد تخرج في هذه الدور فعلاً كثيرون بلغوا مناصب رفيعة، أو قاموا بمشاريع نافعة خدموا فيها أنفسهم وبلادهم فردّوا إليها جميلها بأحسن منه. وفي كل البلاد الإسلامية كثير من هذه الدور كانت ومازالت تمول بتبرعات سخية بدافع ديني قبل كل شيء.

وأبرزت الحاجات مع الأيام، عدا ما تقدم، أفكاراً جديدة ومشاريع جديدة كالجمعيات التي تعنى بالمرضى المحتاجين لعمليات جراحية كبيرة التكلفة، وجمعيات حفظ النعمة التي تجمع القديم من حاجات الناس والأثاث والملابس أو الفائض عن طعامهم لتقدمه للمحتاجين على اختلاف أنواعهم، والجمعيات التي تساعد في شراء دور لمن لا يستطيع

توفير ثمن دار لسكنه، والجمعيات التي تساعد في زواج المعسرين، والجمعيات التي تقوم بترميم المساجد والإشراف على نظافتها، والجمعيات التي تعنى بالمعاقين على اختلاف أنواع الإعاقة.. هذا كله يقوم به رجال ونساء نذروا أنفسهم للعمل الخيري تطوعاً دون مقابل، إضافة إلى ما يتبرعون به من مالهم وجهدهم ووقتهم.

هذه الجمعيات المختلفة وغيرها - مما قد أكون أغفلت ذكرها عن غير قصد - جديرة ومن يقوم عليها ومن يساعدها، بالتقدير والاحترام؛ لأنها تدعم المجتمع الذي يجب أن يكون كالبنيان المرصوص يشد بعضه أزر بعض، يدعم قويه ضعيفه ويساعد غنيه فقيره ويحنو كبيره على صغيره، فيحقق بذلك التكافل الاجتماعي الذي هو سمة من سمات المجتمع الإسلامي الراقي.